# فساد النظامات الاجتماعية

تختلف الشعوب بنظاماتها وقوانينها وعاداتها وتقاليدها دائما كما تتفق بالأسس التي عليها بنت هذه النظامات والقوانين والعادات والتقاليد . وقد يستغرب المرء اذا ما سمع لأول مرة أن عظمة انكلترا وحقارة الهند مثلا مرتكزتان على أساس واحد موروث عن النظامات الطبيعية الحيوانية . ولكن استغرابه هذا يزول عندما يعرف وضعية روح الاجتماع الحاضر وما يولد من الشرور تحت ستار زخارف المدنية الحديثة المبنية على الرمم والعظام . ولما كان لا بد من التطور فان التاريخ سيمثل نفس الدور الذى مثله الانكليز بالهنود وستنتقل حضارات الشعوب الحاضرة إلى غيرها ممن نهزأ منهم اليوم لحقارتها وهمجيتها لأن حب الحرية المطبوع بظواهر الحضارات سيكبر فى نفوس الشعوب الضعيفة حتى يصير ضرورة طبيعية تدفعها الى حيث تصبو الى الحرية والمجد . انما هذه الحرية وهذا المجد لن يدوما عندها بل سينتقلان إلى غيرها وذلك لأنهما وهميان يظهران فى زخرف المدنيات وعند حوزة هذه المدنيات من أمة ما تظهر الحقيقة لها فتحل وتسترخى ويكون من جراء هذا نزع المدنيات منها ولصقها بغيرها ممن كانت أحقر وأضعف منها . فالشعوب الأوروبية كانت فيما مر من الازمان فى ظلام من الجهل دامس بينما كانت حضارات الشرق تضيء بنورها الساطع هذه الربوع المظلمة اليوم فبعد أن أطلع الاوروبيون على تلك الحضارات صبت نفوسهم اليها لتوهمهم أنها الحرية والمجد وكان الشرقيون قد عرفوا ما فى الأمر من وهم . فازدروا بما عندهم وكان من جراء ذلك التوهم وهذا الازدراء ان انتقلت الحضارات الى الغرب بعد أن نمت قليلا فى خلال المنازعات عليها وهاهى اليوم قد طبعت فى الظواهر بالغرب مع أنها فى الأصل لم تزل غريبة عنه كما كانت غريبة عن الشرق لأنها ظاهرة حيوانية طبيعية تنمو خلال الحروب وتنتقل من أمة إلى أخرى حسب وضعية الشعوب فى الرقى والتمدن .

فاذا قلت إن المدنيات ضرورة وان النظامات الاجتماعية ضرب من مظاهر القوة

التى لا تعرف الحق هذا اذا كان من معنى لكلمة الحق ـ فانى أقول الصحيح وسأبين فى بحثى هذا المظالم التى تسود العالم من جراء هذه المدنيات وهذه النظامات التى يقدسها أكثر الناس اليوم .

أظهر مظاهر الاحياء ـ جماعاتها ـ و أظهر مظاهر هذه الجماعات قوانينها وتقاليدها ولكن مع أن الاجتماع ظاهرة ضرورية للاحياء اليوم لأن يفوز بها النوع على غيره والشعوب على بعضها ـ فانها نظام حيوانى مبدؤه اضمحلال الفرد بروح الجماعة وتضحية الفرد لصالح الجماعة . وهذا من أشد المظالم أثراً ولكنه مقدس اذا بقينا كانحن نسير على نظام حيوانى ورثناه عن سلفنا وسنورثه لمن يخلفنا .

يقول البعض من علماء الاجتماع إن الجماعات تتخذ شكل الفرد . والفرد مظهر من مظاهر الطبيعة ولهذا فان الجماعات ظاهرة طبيعية لا يمكن تحويرها ؟ ؟ . ولكن قولهم هذا يشبه قول علماء الطبيعة بعد نيوتن الذين كانوا ينظرون إلى ناموس الجاذبية كحقيقة طبيعية راهنة مع أن إنشتين قد صور ذلك الناموس الوهمى وبين للعالم حقيقة طبيعية ثابتة كانت بمعزل عن آراء العلماء ـ فالطبيعة التى يستشهدون بها لا توجد وجوداً ذاتياً أعني أنها لا تأمر بعمل هذا ولو كان مضرا ، وترك ذاك ولو كان نافعاً لان الانسان هو طبيعة ذاته يحورها كما يريد ويبدلها كما يشاء بنسبة قدرته البدنية و قوته العقلية ورغبته فى عمل هذا أو ذاك ! مثلا الاديان لا حقيقة لها والآلهة التى يعبدها الناس لا توجد أبدا ولكن لو قلنا ان هذا المظهر طبيعى فلا نعنى أن الطبيعة هى التى تأمر الناس بالعبادة لانهم هم الطبيعة وهم الذين يفعلون هذا أو ذاك وبحسب ما يفعلونه طبيعة . فاذا قلت ان الجماعات مظهر طبيعي وان الناس هم طبيعة الجماعات فاعنى اننا نقدر أن نحور هذه الجماعات حسب ارادتنا ورغبتنا المؤسستين على المنفعة الفردية المحسوسة القريبة ، التى منها تتحور الجماعات وتتبدل هذه المدنيات المبنية على جثث الناس والضحايا البريئة .

وقد تشبه هذه المدنيات جماعات من الناس تتنازع على حوض ماء لا نبع له . فهذا النزاع قد لا ينتهى وانما هذا الحوض قد يجف من تبخر مائه بحرارة الشمس القوية . فهل يجب أن يدوم النزاع بعد أن يجف ماء الحوض أم ان يذهب كل فريق

فى سبيله بعدان يتفى السبب الذى من أجله يتنازعان؟؟ . وهذا المثل يفسر بقولنا . ظن الناس قديما ان الفرد عدو الفرد وان الجهاد فى سبيل تأييد مبدإ أو رأى موحى به من الله يكسب الانسان أجرا يناله فى السماء بعد موته . وهـذا الظن قد انتقل الى الجماعات وها هـو اليوم يظهر فى الشعوب الشرقية والغربية على السواء فهل يجب أن نداوم السير بحسب موحيات هذا الظن بعد ان عرفنا فساده وان الانسان ليس عدوا للانسان وان آراء الآلهية ليست سوى خرافات وأوهام أم نبدل وجهة سيرنا ونتخذ قاعدة أخرى تتفق ومقدرتنا العقلية ورغبتنا الصادقة المؤسسة على منفعة الفرد المحسوسة وزيادة الراحة والسلام والطمأنينة .

إن المدنيات التى تستغوينا ونرى فيها كل الحرية والمجد ليست سوى سراباً لا يتحققه الا الذى يصل اليه . فالحضارات التى نمجدها تسلية صعبة للعالم يبذل فى سبيلها ملايين النفوس البريئة فاذا ما بقينا ننظر اليها كهدف أسمى فى الحياة سنبقى حيث نحن نتاوى بالسلام العالمى ولا نفقه له معنى فيجب أن نطرح حب زخارف هذه المدنيات جانبا ونطبع ذراتنا على حب الأخوة الخالصة بعد الشعور بوجودنا الشخصى لان فى هذا وحده نؤثر فى هذه العاصفة الهوجاء التى تقتحم البشرية وتفتك بها فتكا ذريعا تقشعر من حوله الابدان .

ربما يعترض البعض من أن صيرورتنا غنما فى وسط ذئاب العالم لا يفيدنا ولا يفيد العالم فبدلا من أن نتحمل العذاب ونموت ضحية النواميس الطبيعية يجب أن نكون الاقوياء ويكون غيرنا تلك الضحية . . أن هذا الاعتراض له مقامه فى نفوس المفكرين بعد ان أظهر العلامة داروين حقيقة النشوء والارتقاء ويمكننى أن أقول إن ضرره أكثر من نفعه لان يقظة الجماعات للحروب بعد معرفتها هذه الحقيقة قد زادت ومن جراء ذلك الازدياد قويت هذه المدنيات وصار تحويرها صعبا .

اننا مع استعدادنا لرد غارة الفاتحين وتضحية النفس فى سبيل الحياة يجب أن نبشر بهذه الحقيقة لان انحاء الارض تكفى خمسة أضعاف العالم والسعادة الموهومة بعد الموت لاحقيقة لها والفردحر فى ذاته . هذا بعد أن يتحرر من نير الغواية والجهل وسلطة الآراء الاجتماعية بواسطة تعليمه ليشعر بوجود ذاته لا ان يخرج من نير

عبودية النظام الرأسمالي يضع عنه نير عبودية النظام الشيوعي أو ان يترك التمسك الاعمى بوجود الآلهة و يتمسك تمسكا أعمى بعدم وجودها . انما لا يجب السهو عن ان هذه المدنيات تعوق الرقي الفردي الذي نبشر به تسلطها على الافراد من ناحية الاقتصاديات أولا وروح الجماعات ثانيا واذا قلت الاقتصاديات وروح الجماعات فاني أعني أهم شيء ترتكز عنه هذه المدنيات فالانسان الذي يتمشدق على المنابر بالحرية والمجد من وراء الحرب انما هو أجهل من أي جهل . والناس الذين يسيرون وراءه طوع اشارته انما هم حيوانات عجم لا تفكر ولا تعقل وقد يكون من وراء هذا الانسان النفع الموضعي لهؤلاء الناس وانما هذا النفع لا يفيد شيئا لان التاريخ سيمثل نفس الدور الذي مثله هؤلاء الناس في غيرهم وسينزع منهم هذا النفع الذي حازوه وسيرجعون الى ذات الطريقة التي بها كانوا قد انتفعوا وسيدفعون في المرات الثلاث مرة النفع ومرة نزع النفع منهم ومرة اعادة النفع الوفا لابل ملايين من النفوس البريئة ثمنا لوهمهم وعبادتهم .

ان قلبي يكاد يتفطر حزنا وغما على مصيرنا ونهايتنا في هذه المدنيات الظالمة الغاشمة لاننا سنضطر إلى عمل ما يذهب برونق وجودنا السامي وسنجازي طغيان هذه العاطفة التي قد لا تنتهي اذا بقيت على حالها أبد الدهر .

ا . ح